كنوز الاجداد

— ١ —

الصولي (ابو بكر محمد بن يحيى)

نشأ في بغداد وأخذ العلم عن أئمة عصره وتأدب به ناس وروى عنه الحديث بعض المشاهير وكانت محاضرته أجمل من شعره ونثره . ومن قوبت فيه ملكة من الملكات قد تضعف فيه الملكات الأخرى . وتآليفه كثيرة . ساعده على التوسع في أخبار خلفاء بني العباس ووزرائهم وشعرائهم وعلى « ذكر غرائب لم تقع الى غيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كونه نادم الراضي ، وكان أولاً يعلمه ، ونادم المكتفي ، ثم المقتدر دفعة واحدة .

قالوا : « كان محظوظاً من العلم ، مجدوداً من المعرفة ، مرزوقاً من التصنيف ، حسن التأليف » و « حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، مقبول القول » كان زينة المجالس موصوفاً بظرفه البغدادي ، رغب الخلفاء في منادمته ، لسعة فضله ولطف عشرته . استبطن اخبار الناس ودوّن كل ظريف روي عنهم ، فهو الى الطرافة فيما دونه من طريف وتالد ، يحسن الغناء وسائر فنون الأدب الرفيع وكان ألعب اهل زمانه بالشطرنج ويمتاز بعلمه وفقهه وبعد نظره . وجميع ادواته هذه تجعله بين أفراد قلائل صلحوا للمنادمة من كبار هذه الأمة فهو أديب يحسن الكلام والحوار وليس سلك المنادمة بالشيء السهل لما يحتاج اليه من آداب تؤيدها حافظة وذاكرة وتزينها طلاقة لسان وفضل بيان وكانت له يد باسطة في نقد الشعر ونظر ثاقب في تقدير مراتب الشعراء الاسلاميين والجاهليين فهو نقادة راوية تقرأ امثلة من نقداته في كتاب الموشح لتلميذه المرزباني . اما فيما ينظم فلم يوفق التوفيق كله وما نشره له بعض اهل الأدب في كتبهم فانما كانت

اجادته نسبية بالقياس الى بقية شعره وما كان من النوع الذي يرضون عنه . وهو نديم متكلم لا ادبب يخلد أدبه . حاول في كتابه الأوراق ان يأتي بقصائد ذات قوافٍ مستغربة فأبهم وعمى وظهر التكلف على ما قرض .

وفي الصولي شيء من الضعف ظهر من مبالغته في محامد الراضي لأجل عطاياه له ، وما كان الراضي بالخليفة التي تهوي اليه النفوس اذا جرى التنظير بينه وبين الممتازين من اسلافه ، وملكه لا يتجاوز اسوار مدينة بغداد وحكمه ايضاً غير نافذ فيها . وقد رأينا الصولي يستجدي الخليفة ويشكو الزمان والحرمان ولا يفتأ يقول فلان نحني وفلان حرمني . خلق لا يليق ان يتخلق به من يدعي انه من نسل ملوك وهو على اي حال يعاشر ملوكاً وأمراء ولا يجوع في قربهم مهما عدا عليه الزمان .

تدور موضوعات كتب الصولي على اخبار الطبقات الراقية في عصره وعلى شعرهم وادبهم وظرفهم . وكتابه « الأوراق » مثال جميل من ذلك . وكذلك أدب الكتاب « الفه فيما يحتاج اليه اعلى الكتاب درجة واقلهم منزلة » وهو هنا اذا كتب بدأ ضعفه واذا روى جود النقل فخليق به ان يدعى راوية . وما خلا الصولي من أناس يهزجوا علمه واستصغروا تآليفه ومنهم ابن النديم قال ان الصولي عوّل عند تأليفه « الأوراق » على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء او على كتاب اشعار قريش وانه نقله نقلاً وانتحله . وزعم ابن النديم انه رأى دستور الرجل في خزانة الصولي بخط المرثدي فافتضح به .

قد يكون الصولي اقتبس اموراً كثيرة من كتاب الشعر والشعراء او شعراء قريش أو غيره لكن ما أتى به من عنده ظاهر وتعمد ابن النديم في الطعن عليه يستنتج من وصفه اياه بأنه « جماعة للكتب » ولعل ذلك أتى من تنافس الرجلين في اقتناء الأسفار ، وابن النديم وراق قبل كل شيء . وذكروا انه كان للصولي بيت عظيم مملوء بالكتب وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان كل صف من الكتب لون : فصف أحمر وآخر اخضر وآخر اصفر وغير ذلك وكان الصولي يقول هذه الكتب كلها سماعي .

مات الصولي بالبصرة مستتراً لأنه روى خبراً في علي بن ابي طالب فطلبته الخاصة والعامة لتقتله وذلك سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة على الأرجح ·

لعل قارئ هذا يعترض علي سلكنا الصولي في عظماء المؤلفين وهو في الواقع منهم لأنه أتى بجديد ولأنه صورة غريبة من رجال تلك الأيام فقد جاء حتى في عصره اعظم منه في الحديث واكبر منه في الأدب ولكن العبرة بمن يجمع هذه الأدوات في ثقافة ذاك العصر ويحظى في قصور الخلفاء بتلك المكانة ولا يضيع ما مرّ به من الفوائد فيقيدها ويخلفها للأجيال بعده تنتفع بها · اما نقلة المؤلفين عن غيرهم ولا سيما في الحديث والفقه فأي مزية لهم اذا لم ينفردوا بأشياء لم يسبقوا اليها فما أكثر عدد هؤلاء وما أقل من جمعوا الى فقههم ادباً رفيعاً ارتاحوا اليه وأراحوا وانتفعوا به ونفعوا وكان له على الأيام صدى يتناقل فيطرب ويعجب ·

قصة من مروياته : عن العتابي قال : كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكي اربعة آلاف ما بين شاعر وزائر ، وفينا فتى يحدثنا ونجتمع اليه · فبينا هو ذات يوم قاعد اذ اقبل اليه غلام له كأجمل الغلمان فقال له : يا مولاي اخرجتني من بين ابويّ وزعمت ان لك وصلة بالملوك فقد صرنا الى اسوإ ما يكون من الحال وقال : ان رأيت ان تأذن لي فأنصرف الى ابويّ فعلت ، قال فاغرورقت عينا الفتى ثم قال : ائتني بدواة وقرطاس ، فأتاه بهما فقعد حجزة فكتب رقعة ، ثم عاد الى مجلسه ثم قال للغلام : انصرف الى وقت رجوعي اليك · فبينا نحن كذلك اذ جاء رجل ليستأذن على الفضل ، فقام اليه الفتى فقال : توصل رقعتي هذه الى الأمير قال : وما في رقعتك قال : امدح نفسي واحث الأمير على قبولي · قال : هذه حاجة لك دون الأمير ، فان رأيت ان تعفيني فعلت · قال : قد فعلت · فعاد الى مجلسه فخرج الحاجب فقام اليه فقال له مثل مقالته الأولى فاستظرفه الحاجب وقال : ان رجلاً يتصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب · فأخذ منه الرقعة ثم دخل فلوّحها للفضل ، فقرأ منها سطرين وهو مستلق

على فراشه ، ثم استوى قاعداً وتناول الرقعة فقرأها فلما فرغ من الرقعة قال للحاجب : أين صاحب الرقعة ؟ قال : أعز الله الأمير ، لاوالله لا أعرفه لكثرة من بالباب . فقال الفضل انا انبذه اليك الساعة ؛ يا غلام اصعد القصر فناد : اين مادح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ، فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء ، فلما مثل بين يدي الفضل قال له : انت القائل ما فيها ؟ قال : نعم قال انشدني فأنشده الفتى يقول :

انا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو ارباح
كاتب حاسب خطيب بليغ ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق اخف من الريـ ـشة مما يكون تحت الجناح

الى ان قال في قصيدته انه يروي شعراً عن ابن هرمة وعلماً عن ابن سيرين وله في النحو نفاذ ، وانه قادر على منادمة الخلفاء يضطلع بالمهمات ، ويعرف ادب المجالسة ، وانه ابصر الناس بالجوارح والخيل والنساء ، وان فيه دعابة وهو غير ماجن الى آخر ما وصف به نفسه فقال له الفضل :

كاتب حاسب خطيب اديب ناصح زائد على النصـاح

قال : نعم ، اصلح الله الأمير . فقال الفضل : يا غلام الكتب التي وردت من فارس ، فأتى بها ، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها . فجلس بين يدي الفضل يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن اذهن لك فقال : ههنا الرأي اجمع بحيث الرغبة والرهبة . فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل ، فكأنما شق عن قلبه .

فقال الفضل يا غلام : بدرة بدرة بدرة فقال الفتى للغلام : اعز الله الأمير دنانير او دراهم . قال : دنانير يا غلام . فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها قال الفتى : والله ايها الأمير ما انا بحمال ، وما للحمل خلقت ، فان رأى الأمير ان يأمر بعض غلمانه بحملها على ان الغلام لي . فأشار الفضل الى بعض الغلمان فأشار الفتى اليه مكانك . فقال : ان رأى الأمير ، أيده الله ، ان يجعل الخيار الي في الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال : اختر ،

فاختار اجملهم غلاماً فقال : احمل . فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى ، فاستفظع الفضل ذلك وقال : ويلك استقلالاً قال : لا والله ، ايدك الله ، ولقد اكثرت ، ولكن اسفاً ان الارض تواري مثلك ، قال الفضل : هذا أجود من الأول ، يا غلام زده كسوة وحملاناً . قال العتابي : فلقد كنت أرى ركاب الفتى تحت ركاب الفضل .

طيفور (احمد بن أبي طاهر)

٢٨٠

كان ابوه طيفور من مرو الروز من ابناء خراسان ومن اولاد الدولة ، وولد ابنه احمد في بغداد سنة اربع ومائتين واخذ الأدب والحديث عن رجال عصره وروى عنه جماعة ، وانصرف الى الرواية والأخبار . وكان لأول نشأته مؤدب صبيان ثم جلس في سوق الوراقين ، واشتهر بالشعر والكتابة ، قال فيه صاحب تاريخ بغداد انه احد البلغاء الشعراء والرواة ، من اهل الفضل المذكورين في العلم ، ووصفه المسعودي بالشاعر ، وأورد له قصيدة رثى بها يحيى بن عمر وكان ظهر بالكوفة سنة ثمان واربعين ومائتين جاء فيها :

سلام على الاسلام فهو مودّع اذا ما قضى آل النبي فودعوا

الى ان يقول :

بني طاهر واللؤم فيكم سجية وللغدر منكم حاسر ومقنع
قواضبكم في الترك غير قواطع ولكنها في آل احمد تقطع
لكم كل يوم مشرب من دمائهم وغلتها من شربها ليس تنقع
رماحكم للطالبين شرّع وفيكم رماح الترك بالقتل شرّع
لكم مرتع في دار آل محمد وداركم للترك والحبش مرتع

وأنشد بعض اهل الأدب قوله في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذي قاله :

اذا ابو احمد جادت لنا يده لم يحمد الاجودان البحر والمطر

ويختمها بقوله :

الجود منه عيان لا ارتياب به　　اذ جود كل جواد عنده خبر

قالوا لو استعمل الانصاف لكان هذا احسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وليست مكانة ابن طيفور بشعره ، ولا بما روى من حديث ، فالشعر كان آلة من آلاته ، والمحدثون كثار ، ومنصرفون اليه في الليل والنهار ، ولكن ابن طيفور كان عظيماً بروايته ، فان ما تركه من كتبه يبلغ خزانة صغيرة . ولقد وصفه ابوبكر الصولي وقال فيه انه صَحفي ، اي يروي الخطأ عن الصحف ولم يأخذ عن الشيوخ ، وانه حاطب ليل ، وانه يشترط في كتبه اختيار الشعر الجيد ويأتي بالرديء ، ويزعم انه يقلل فيكثر ، وفي إكثاره يسيء ، ثم يحكي الكذب ، ويخطئ في التاريخ ، وفي نسب الشعر ، هذا ما روي عنه أنه قاله فيه . ومن من المؤلفين يا ُترى خلا من نقد ؟ وهل خلا الصولي نفسه منه فارتضى النقاد تدوينه ؟ وهل كان ذوقه عالياً كما اراد اختيار شعر ونثر . والاجتهاد ما زال يختلف في الرجل الواحد ، وفي العام الواحد ، فما بالك في الرجال وفي العصور . وان راوية مكثراً مثل طيفور لا تكاد تجد كتاباً من الأمهات التي أُلفت بعد عصره الا وينقل او يكثر من النقل من كتبه ، لا يقدح في مروياته ولا يسقطه بأنها من بضاعته ، ثم أي عالم خلا من لحن وتصحيف ؟ وذكروا ان بعضهم قال فيه أنه كان بليداً في علمه وانه يلحن ، وانه قال ذلك للبحتري فأقره عليه . وعرفنا انه كانت بين البحتري وطيفور أمور تراخت بهـا صلاتهما ، فألف طيفور كتاباً في سرقات البحتري من ابي تمام ، فبالطبع يحمى انف البحتري منه ويطعن في علمه وادبه . أما هو فقد طعن البحتري في اخلاقه طعنة نجلاء حرام رأيها على وجه الدهر ، قال فيه : مارأيت اقل وفاءً من البحتري ولا اسقط : رأيته قائماً ينشد احمد ابن الخصيب مدحاً له فيه ، فحلف عليه ليجلسن ، ثم وصله واسترضى له المنتصر ، وكان غضبان عليه ، ثم اوصل له مديحاً اليه واخذ له منه مالاً فدفعه اليه . ثم

نكب المستعين احمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور ، فالبهدي به قائماً ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ... بإفكه المردي وإبطاله
كادَ امين الله في نفسه ... وفي مواليه وفي ماله
ورام في الملك الذي رامه ... بغشه فيه وادغاله

الى ان قال وكلها طعن في ابن الخصيب :

فهو حلال الدم والمال ان ... نظرت في ظاهر احواله

قال ابن ابي طاهر : كان ابن العلجة فقيهاً ، بفتي الخلفاء في قتل الناس نزحه الله ، ثم ختم القصيدة بقوله :

والرأي كل الرأي في قتله ... بالسيف واستصفاء أمواله

وهذا اعظم هجو يهجى به البحتري ، وقد هجاه طيفور بقصيدة أيضاً ، فلا غرو ان يسقطه البحتري ويرذل ادبه .

وقال الذين صغروا شأن طيفور في الأدب انه كان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة خلواً من الكهوب اي لا يتغير لونه ثابت في خلقه ، وهو الى هذا معروف بمرَحه ، يبتدع النكات ويحسن التقاطها وابرازها للناس ، وكتابه بلاغات النساء نموذج من منزعه وكثرة تتبعه . والف في المزاح والمعاتبات وفي أمور فيها دعابة وأدب واقعي .

وقصيدته ليلة بات في « دير السوسن » في عودته من « سر من رأى » وقد زار بعض كتابها ومدحه فأحسن صلته ، ووهب له غلاماً رومياً حسن الوجه ، واعترافه بأنه بات والغلام يسقيه ، والراهب نديمه حتى مات سكراً ، وطلبه المغفرة عما أتى من ربه — كل هذه امور اذا صحت تصف جانباً ظاهراً من مَرَحه وتبذله . ومن هذه الأمور ما اقترفه في صباه ، ومنها ما أتاه في الكهولة ، وشعره لا يخلو من نكتة ، وربما قال بعض شعره من اجل نكتة فأعقبته نكبة ، كما حدث عن نفسه قال : خرجت من منزل ابي الصقر نصف النهار في تموز فقلت : ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرّد ، اذ كنت لا أقدر أصل الى منزلي بباب الشام ، فجئته فأدخلني الى حويشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين ،

وسقاني ماءً بارداً ، وقال لي : أحدثك الى ان تنام ، فجعل يحدثني احسن حديث . فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان فقلت : قد حضرني بيتان أنشدهما ؟ فقال : ذاك اليك ، وهو يظن اني قد مدحته فأنشدته :

ويوم كحر الشوق في صدر عاشق   على انه منه أحرّ وأرمد
ظللت به عند المبرد قائلاً   فما زلت في ألفاظه اتبرد

فقال لي: قد كان يسعك اذا لم تحمد ألا تذم، ومالك عندي جزاء إلا إخراجك ، والله لا جلست عندي بعد هذا . فأخرجني فمضيت الى منزلي بباب الشام ، فمرضت من الحر الذي نالني مدة ، فعدت باللوم على نفسي . وقد روى انه قال في المبرّد ، وحسبك من عالم محقق .

كملت في المبرّد الآداب   واستقلت في عقله الألباب
غير أن الفتى كما زعم النا   س دعي مصحفٌ كذاب

ربما زعم زاعم انه ليس من الانصاف ان يقرن هذا العيار من الرجال الى عظماء العلماء المعروفين في علوم الدنيا والدين فالجواب ان في الحق ان يجعل هذا الرجل في الصف الأول بين الرجال لأن أدبه اثمر ما لم يثمر غيره مثله والعبرة بمن يسدُّ ثلمة صغيرة من بناء الآداب كانت لولاه خالية ومن يجوّد فناً واحداً من فنونه بامتاع وابداع .

القاضي التنوخي

أبو علي المحسّن بن علي

٣٨٤

اخذ القاضي عن أئمة البصرة ، ونزل بغداد وتقلد القضاء زمناً طويلاً وعرف رجال السياسة في عصره ، ودرس مذاهبهم واهواءهم ، ورأى مشاكل الناس ومتاعبهم فاتسع أفقه وكثرت آدابه وتجاربه . وهو من بيت كل اهله فضلاء وادباء كان ابوه عالماً وأديباً ، وهو عالم وأديب . وكان سماعه صحيحاً ويميل للأدب والشعر والأخبار .

أتم ما بدأ به استاذه الصولي من تدوين اخبار المجتمع العباسي واقتصر الصولي على اخبار الخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء ودون التنوخي الأخبار على اختلاف مصادرها واشكالها . وقد يروي القصة بأكثر الفاظها وان كانت مولدة او عامية لئلا يضيع من رونقها فهو من هذا النظر ناقل صحيح النقل يجود تصوير ماوقع بأمانة ولا يخرم شيئاً مما يبلغه عن الثقات او يرى فيه نكتة وعبرة وتسلية .

من مصنفات القاضي التنوخي «الفرج بعد الشدة» و «نشوار المحاضر» او جامع التواريخ والمستجاد من فعلات الأجواد . ألف كتاب الفرج ليفزع اليه من اناخ الدهر بمكروهه عليه فيقرأ من الأخبار فيه ما يسليه ويتعظ به . وكان سبقه الى مثل هذا الموضوع ثلاثة من المؤلفين كتبوا فيه أوراقاً اما هو فاقتصر على احسن ماروي من الأخبارمخالفاً مذهب من تقدمه في التأليف . نوّع الأخباروجعلها ابواباً وعزا ماأخرجه من الكتب الثلاثة الى مؤلفيه تأدية للأمانة واستيثاقاً في الرواية وتبييناً لما أتى به من الزيادة فأوجز ، وأسقط الحشو وترك الاكثار اي انه جمع ما هب ودب أولاً ثم اسقط ما اسقط وابقى ما أبقى . وحمل كتابه مع هذا من انواع الخرافات صنوفاً ، ومن الأمور النابية عن حد المعقول ضروباً ، ومن اخبار الفساق والمجان ما نقله على علاته ارادة الترويح عن النفوس وجاء بحكايات ونكات وبعضها مما دخل في كتابه نشوار المحاضرة . وفي الفرج بعد الشدة يقول الثعالبي في اليتيمة : وله كتاب الفرج بعد الشدة وناهيك بحسنه وامتاع فنه ، وماجرى من الفال بيمنه ، لا جرم انه أسير من الأمثال ، واجرى من الخيال .

ومعنى «النشوار» جرة الحيوانات المجترة استعملها بمعنى الحديث وهو حكايات منقحة منسجمة كتبت بقلم كاتب تحتذى كتاباته متى ترك التكلف ، وتكلفه كان ظاهراً في مقدمة كتابيه الفرج والنشوار . وقد قال في مقدمة النشوار ولعل قارئها ان يستضعفها اذا وجدها خارجة عن السنن المعروف في الأخبار الراتبة في الكتب وذكر اصناف الناس الذين دون اخبارهم حتى قطاع الطريق

والمتلصصين والخراب والمخربين واصحاب العصبية والسكاكين واهل الخسارة والعيارين . ولا تكاد تخطر بالبال طبقة من طبقات الخلق الا ويعرض لذكر اخبارها فأثبت من ذلك ما سمعه منذ وعى على نفسه واعتقد اثبات كل ما سمعه من هذا الجنس مما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدثين او مجيد من الكتاب والمتأدبين او كلام منثور لرجل من اهل العصر او رسالة او كتاب بديع المعنى او حسن النظم والنثر الى ما شاكل ذلك من مثل طري او حكمة جديدة او نادرة حديثة او فائدة قريبة المولد ليعلم ان الزمان قد ابقى من القرائح والألباب في ضروب العلوم والآداب اكثر مما كان قديمًا او مثله ، ولكن تقبل ارباب تلك الدول للأدب اظهره ونشره وزهد هؤلاء الائمة في هذا الأدب غمره وستره ، قال والا فقد خرج من اعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون اسرار العلم ما لعله كان معتاصًا على الماضين وجرى من الحوادث الكبار والانقلابات العجيبة التي لا يوجد مثله سالفاً في اضعاف هذه السنين ما لو قيد بتأليف الكتب لأوفى على ما سلف وتقدم في علو الرتب .

وزاد ان هذه المدونات نوع لم يسبق الى كتبه لأنها مقصورة في الأكثر على ضروب من الأحاديث السابقة والسالفة في زماننا التي تظلم عندي بأن لا تكتب وهي تصلح لمن قد فرغ من اكثر العلوم واشتهى قراءة ما يدله على اخلاق اهل الازمنة وسننهم وطرائقهم وعاداتهم وان يقايس بين ما نحن فيه وما مضى ليعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الأهواء وانعكست الآراء وفقدت المكارم قال : « وحقًا لو باشر حكيم من اهل تلك الأزمنة حتى يرى ما حصلنا عليه ودفعنا اليه ما شك في قيام الساعة او ان الناس بدلوا بهائم مهملة او جعلوا آلات غير مستعملة لفقد الأحرار وشدة الاعسار ولطول المتاعب وتواتر النوائب » .

وفي الكتاب ذكر معتقدات الناس واوهامهم وكثير من الشعر الرائق والنثر الفائق . ولا نغالي اذا قلنا ان كتاب النشوار افاد في الكشف عن احوال القرن

الرابع ما لا يستفاد من عشرات من الكتب ومنها ما لا يستبين منه حال العصر الذي كتبه فيه الا بشيء من الفرضيات والاستنتاجات ولو سلم «النشوار» كله وانتقل الى ابناء هذا الجيل كما كتبه مؤلفه لكان اصدق صورة عن ذلك الزمن وعدّ في فنه من الأمهات .

ومن لم يكتب له مطالعة النشوار يحتاج الى مثال منه يعطيه فكرة في جلال موضوعه وأسلوبه قال التنوخي : حدثني القاضي ابو بكر محمد بن عبد الله قال حدثني مكرم بن ابي بكر عمر ابي الحسن بن مكرم القاضي قال : كنت خصيصاً بأبي الحسن علي بن عيسى (من اعظم وزراء بني العباس واعفهم واعلمهم) وربما شاورني في شيء من أمره قال : دخلت عليه يوماً وهو مغموم جداً فقدرت انه بلغه عن المقتدر امر كرهه فقلت : هل حدث شيء واومأت الى الخليفة ، فقال : ليس غمي من هذا الجنس ولكن مما اشد منه ، فقلت : ان جاز ان اقف عليه فلعلي اقول شيئاً ، فقال : نعم كتب اليّ عاملنا بالثغر ان اسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفق وصيانة الى ان وُلي آنفاً مُلك الروم حدثان فعسفا الاسارى وأجاعهم وأعرياهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر ، وانهم في جهد جهيد وبلاء شديد ، وليس هذا مما لي فيه صلة لأنه أمر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفة يطاوعني فكنت انفق الأموال واجتهد واجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية . فقلت : ايها الأمير ها هنا رأي اسهل مما وقع لك يزول به هذا . فقال : قل يا مبارك ، فقلت : إن بأنطاكية عظيماً للنصارى يقال له البطرك وبيت المقدس آخر يقال له القاتليق (الجاثليق ؟) وامرهما ينفذ على ملك الروم ، حتى أنهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ويحلانه فيحل ، وعند الروم ان من خالف منهم هذين كفر ، وانه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم الا برأي هذين ، وان يكون الملك قد دخل الى بيعتها وتقرب بها . والبلدان في سلطاننا والرجلان في ذمتنا فيأمر الوزير بأن يكتب الى عاملي البلدين باحضارهما وتعريفهما ما يجري على الأساري وان هذا خارج عن

الملة ، وانهما ان لم يزيلا هذا لم يطالب بجريرته غيرهما وينظر ما يكون الجواب .

قال فاستدعى كاتباً واملى عليه كتابين في ذلك وانفذهما في الحال ، وقال ــــ سرّيت عني قليلاً . وافترقنا فلما كان بعد شهرين وايام ، وقد أُنسيت الحديث جاءني ُفرانق (١) من جهته يطلبني فركبت وانا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك حتى وصلت اليه ، فوجدته مسروراً فحين رآني قال ــــ : يا هذا احسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني فقلت : ما الخبر ؟ فقال : كان رأيك في أمر الأُسارى ابرك رأي واصحه وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر (وأومأ الى رجل كان بحضرته) وقال له : خبرنا بما جرى فقال الرجل : انفذني العامل مع رسول البطرك والقانليق برسالتهما الى قسطنطينية وكتبا الى ملكيهما : انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالأسارى وليس لكما ذلك فانه حرام عليكما ، ومخالف لما امرنا به المسيح من كذا وكذا وعدد اشياء من دينهما ، فاما زلتما عن هذا واستأنفتما الاحسان الى الأسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر والا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمناكما . قال فمضيت مع الرسول فلما صرنا بقسطنطينية حجبت عن الملكين اياماً ، وخليا بالرسول ثم استدعياني اليهما فسلمت عليهما فقال لي ترجمانهما : يقول لك الملكان ان الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالأسارى كذب وتشنيع وقد أذنا في ادخالك دار البلاط لتشاهد اسارا كم فترى احوالهم بخلاف ما بلغكم وتسمع من شكرهم لنا ضد ما اتصل بكم . قال : ثم حملت الى دار البلاط فرأيت الأسارى وكأن وجوههم قد أُخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كانوا فيه من العذاب الا أنهم مرفهون في ذلك الوقت وتأملت الى ثيابهم فاذا جميعها ُجدُد فعلمت اني منعت من الوصول تلك الأيام حتى ُغير زي الأسارى . وقال لي الأسرى : نحن للملكين شاكرون فعل الله بهما وصنع ، واومأوا اليّ ان الأمر كما كان بلغكم ولكنه خفف عنا وأحسن الينا بعد حصولك هاهنا . وقالوا لي : كيف

(١) الذي يدل صاحب البريد على الطريق معرب َبروانك

عرفت حالنا ومن تنبه علينا وأنفذك بسببنا . فقلت لهم : ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا قال : فلجوا بالدعاء الى الله تعالى للوزير وسمعت امرأة منهم تقول : مرّ يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفعل . قال : فلما سمع ذلك علي بن عيسى اجهش بالبكاء وسجد حمداً لله سبحانه وتعالى وبرّ الرسول وصرفه ، فقلت له : ايها الوزير اسمعك دائماً تتبرم بالوزارة وتتمنى الانصراف عنها في خلواتك خوفاً من آثامها فلو كنت في بيتك هل كنت تقدر ان تحصل هذا الثواب ولو أنفقت فيه اكثر مالك ولا تفعل ولا تتبرم بهذا الأمر فلعل الله يمكنك ويجري على يديك امثال هذا الفعل فتفوز بثوابه في الآخرة كما تفردت بشرف الوزارة في الدنيا .

والكتاب الثالث من تأليف القاضي التنوخي «المستجاد من فعلات الأجواد» اورد فيه مئة وخمسين قصة في كرماء الجاهلية والاسلام الى عهده التقطها من أصدق المصادر فجاءت صحيفة حكمة وادب واجتماع وأخلاق ذكر فيها من تقدموا عصره كما ذكر في النشوار من كانوا فيه او قبله بقليل ، ورسم به صورة من الكرم قلّ ان اجتمع مثلها في مصحف واحد ، حملت اطايب الشعر وأزاهير جميلة من النثر ومنها ما كان من نسجه ومنها ما نسجه من قبله فكأن هذا المؤلف العظيم احب ان يهذب الناس بحكايات جوّد ايرادها حتى تقع من نفوسهم موقعها . وها كم الآن قصة من قصصه في المستجاد وهي مما يجب على كل من يتعاطى الحكم والادارة ان يجعلها نصب عينه ودليل حكمه :

قال عبد الله بن سليمان : كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بسرّ من رأى وهو يتولاه اذ دخل عليه احمد بن ابي خالد [الصريفيني] الكاتب فقام له أبي من مجلسه وأقعده في صدره ، وتشاغل به ، فلم ينظر في عمل حتى نهض ، ثم قام معه وامر غلمانه بالخروج بين يديه ، فاستعظمت انا وكل من في المجلس هذا ، لأن رسم اصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد

ممن يدخل اليهم ، وتبين ابي ذلك في وجهي فقال لي : يا بني اذا خلونا فسلني عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل .

قال : وكان أبي يأكل في الديوان وينام فيه ويعمل عشياً الحسبانات فلما جلسنا نأكل لم أذكره الى ان كاد الطعام ينقضي ، فقال لي هو مبتدئاً : يا بني شغلك الطعام عما قلت لك تذكرني به ؟ فقلت : لا ، ولكن أردت ان يكون ذلك على خلوة فقال : هذا وقت خلوة ثم قال : ألست انكرت والحاضرون قيامي لأحمد بن ابي خالد في دخوله وخروجه وعما عملته معه ؟ فقلت : بلى قال : كان هذا يتقلد مصر سنين ، فوليت اعمالها وصرفته عنها ، وقد كانت مدته فيها طالت فتتبعته ، فرأيت آثار رجل لم أر أجمل آثاراً منه ، ولا أعف عن أموال السلطان والرعية ، ولا رأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له ، وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر أصدق الناس له مع هذا ، وكان من أبغض الناس [اليّ] وأشدهم اضطراباً في اخلاقه ، فلم أتعلق عليه بحجة ، ووجدته قد أخر رفع الحسابات لسنة متقدمة وسنته التي هو فيها ولم يستتمها لصرفي له عنها ، ولم ينفذه الى الديوان فسمته ان يحط من الدخل ويزيد من النفقات والأرزاق ، ويكسر من البقايا في كل سنة مائة الف دينار لآخذها لنفسي ، فامتنع من ذلك ، فاغلظت له وتوعدته ، ونزلت معه الى مائة الف دينار واحدة للسنتين وحلفت له ايماناً مغلظة مؤكدة أني لا أقنع منه بأقل منها ، فأقام على امتناعه وقال : لا اخون لنفسي فكيف أخون لغيري وازيل ما قام به جاهي من العفاف ؟ فحبسته وقيدته فلم يجب ، وأقام مقيداً في الحبس شهوراً . وكتب عرق الموت صاحب البريد الى المتوكل ، وحلف له ان اموال مصر لا تفي بنفقتي ومؤنتي ، ويصف احمد بن أبي خالد ويذكر ميل الرعية اليه وعفته ، فأرسل المتوكل بتوليته . فأنا ذات يوم على المائدة آكل اذ وردت علي رقعة أحمد بن ابي خالد يسألني استدعاءه لمهم يلقيه الي فلم أشك انه قد استضر بالحبس والقيد ، وقد عزم على الاستجابة لمرادي ، فلما غسلت يدي دعوته فاستخلاني فأخليته ، فقال :

اما آن لك يا سيدي ان ترق لي مما أنا فيه من غير ذنب اليك [ولا جرم ولا قديم ذحل] ولا عداوة ؟ فقلت أنت اخترت لنفسك ذلك ، وقد سمعت يميني وليس منها مخرج ، فاستجب لما أريده منك [واخرج] فأخذ يستعطفني [ويخدمني ويخدعني] [فجاءني ضد ما قدرته فيه] فغاظني فشتمته وقلت له هذا الأمر المهم الذى ذكرت لي في رقعتك أنك أردت القاءه اليّ هو ان تستعطفني وتستجيرني وتخدعني ؟ فقال : يا سيدي وليس الآن عندك غير هذا ؟ فقلت : لا فقال : اذا كان ليس عندك غير هذا ، فاقرأ يا سيدي هذا ، وأخرج اليّ كتاباً لطيفاً مختوماً في ربع قرطاس ففضضته فاذا هو بخط المتوكل الذي أعرفه [يأمرني فيه] بالانصراف وتسليم ما أتولاه الى احمد بن ابي خالد والخروج اليه مما يلزمني ورفع الحساب اليه والامتثال لأمره وطاعته والمسير عن مصر بعد ذلك فورد على أقبح مورد لقرب عهد الرجل بشتمي له والاساءة اليه ، وانه في الحال تحت حديدي ومكارهي ، فأمسكت مبهوتاً ، ولم ألبث ان دخل أمير مصر اذ ذاك في اصحابه وغلمانه فوكل بداري وجميع ماأملكه وأصحابي وغلماني وجهابذتي وكتابي . وجعلت ازحف من الصدر حتى صرت بين يدي احمد بن أبي خالد ، ولست استطيع القيام وهو في قيوده بعد . فدعا امير البلد بحداد فحل قيوده ، فمددت رجلاي ليوضع فيهما القيد ، فقال لي : يا أبا أيوب ضمّ أقدامك ، فوثب قائماً ثم قال لي : يا أبا أيوب : أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولا منزل لك فيه ولا صديق ، ومعك حرم وحاشية ، وليس يسعك الا هذه الدار ، وكانت دار العمالة ، وأما انا فأجد عدة مواضع [غيرها] وليس لي كبير حاشية ، ومن نكبة وقيد خرجتُ ، فأقم مكانك ، وخرج عني وصرف التوكيل عني وعن الدار ، واخذ كتابي واشياعي اليه ، فلما انصرف قلت لغلماني : هذا الذي أراه في النوم ؟ انظروا من وكل بنا فقالوا : ما وكل بنا احداً ، فعجبت من ذلك عجباً شديداً ، وما صليت العصر حتى عاد اليّ من كان حمله معه من المتصرفين والكتاب والجهابذة مطلقين وقالوا : أخذ خطوطنا برفع الحساب ، وأمرنا بالملازمة وأطلقنا ، فازداد عجبي ، فلما كان

من غد باكرني مسلماً ورحت اليه في عشية ذلك اليوم ، فأقمت ثلاثين يوماً ان سبقني الى المجيء والا رحت اليه ، وان راح اليّ والا باكرته ، وكل يوم تجيئني هداياه [وألطافه] من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى والطيب ، فلما كان بعد ثلاثين يوماً جاءني فقـال لي : قد عشقت مصر يا أبا ايوب ، والله ما هي طيبة الهواء ولا عذّبة ، وانما تطيب لغير اهلها بالولاية فيها والاكتساب ، ولو قد رحلتَ الى بغداد وُسرّ من رأى لما اقمت الا شهراً ، ثم تتقلد أجل الأعمال ، فقلت : والله ما أقمت الا متوقعاً لأمرك في الخروج ، فقال : أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب ، واخرج في حفظ الله ، فأحضرت كاتبي وأخذت خطه كما أراد ، وسلمتُ الخط اليه ، فقال لي : اخرج أيّ وقت شئت ، فخرج [من غد] هو وامير مصر وقاضيها ووجوهها وأهلها وشيعوني الى ظاهر مصر . وقال لي : تقيم في اول منزل على خمسة فراسخ الى ان ازيح علة قائد يصحبك برجاله الى الرملة فان الطريق فاسد ، فاستوحشت من ذلك وقلت : هذا انما غرني حتى أخرج كل ما أملكه وجميع ما كسبت فيتمكن منه في ظاهر البلد فيقبضه ثم يردني الى الحبس والتوكيل والمطالبة ، ويحتج علي بكتاب ثان ، يذكر انه « صك » فخرجت واقمت بالمرحلة التي ذكر مستسلماً للقضاء متوقعاً للشر ، الى ان رأيت اوائل عسكره مقبل من مصر ، فقلت لعله القائد الذي يريد ان يصحبنيه او لعله يريد ان يقبض علي به ، فأمرت غلماني بمعرفة ذلك وما الخبر ؟ فقالوا : العامل احمد ابن ابن خالد قد جاء ، فلم أشك في انه قد ورد البلاء بوروده ، فخرجت من مضربي فلقيته وسلمت علته ، فلما جلس قال : أخلونا ، فلم أشك [أنه] للقبض عليّ فطار عقلي ، وقام من كان عندي فلما لم يبق عندي احد قال : انا اعلم ان ايامك لم تطل بمصر ، ولا حظيت فيها بكبير فائدة ، وذلك الباب الذي سألتنيه في ولايتك لم استجب اليك ، وأخرت الاذن لك في الانصراف منذ اول الأمر الى الآن ، لأني تشاغلت بالفراغ لك منه ، وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات في كل سنة خمسة عشر الف دينار [تكون]

للسنتين ثلاثين الف دينار وهو يقرب ولا يظهر ، ويكون أيسر مما اردته مني في ذلك الوقت ، وقد [تشاغلت به حتى] جمعته لك ، وهذا المال على البغال ، وقد جئتك به فتقدم الى من يتسلمه فتقدمت لقبضه وقبلت يده ، وقلت قد والله يا سيدي فعلت ما لم تفعل البرامكة ، فأنكر ذلك مني وتقبض عنه وقبّل يدي ورجلي وقال : ههنا شيء آخر أريد أن تقبله فقلت : ما هو قال : خمسة آلاف دينار وقد استحققتها من رزقي ، فامتنعت من ذلك ، وقلت : فيما قد تفضلت به كفاية ، فحلف بالطلاق أن أقبلها منه فقبلتها ، فقال : وههنا ألطاف من هدايا مصر أحببت أن أصحبك اياها ، فانك تمضي الى كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة فيقولون لك : وليت مصر فأين نصيبنا من هداياها ؟ ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم ، وقد جمعت لك منه ما يشتمل عليه هذا الثبت وأخرج درجاً فيه ثبت جامع لكل شيء في الدنيا حسن طريف جليل القدر من كل جنس من ثياب دبيق وقصب وخدم وبغال ودواب وحمير وفرش وطيب حتى افلام ومداد مايكون قيمته مالاً كثيراً ، فأمرت بتسلمه وزدت في شكره ، فقال لي : ياسيدي أنا مغرى بحب الفرش وقد استعملت لي بيتاً ارمنياً بارمينيّة وهو عشر مصلّيات بمخادّها ومساندها ومساورها ومطارحها وبسطها وهو بطرز مذهبة قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار على شدة احتياطي ، وقد اهديته لك ، فان أهديته الى الوزير عبدك وان أهديته الى الخليفة ملكته به ، وان أبقيته لنفسك وتجملت به كان أحب اليّ ، قال : وحمله فما رأيت مثله قط ، ولم تسمح نفسي بإهدائه لأحد ولا باستعماله ، فما ابتذلت منه شيئاً يا بني الا يوم اعذارك ، فاني اتخذت منه الصدر ومسانده ومخاده ، أفتلومني يا بني على أن أقوم لهذا الرجل ؟ فقلت : لا والله يا أبي ، ولا على ما هو أكثر من القيام ، لو كان مستطاعاً . قال : فكان ابي بعد ذلك اذا صرف رجلاً عن عمل ، عامله بكل جميل ، ويقول : علمنا ابن ابي خالد أحسن الله جزاءه حسن الصرف .

محمد كرد علي